الرئيس بوش وعصر القيادات الهوجاء

د. محمد عبد العزيز ربيع

عندما تم انتخاب جورج دبليو بوش رئيسا لأمريكا في نوفمبر عام 2000 فرح بعض الحكام العرب كثيرا لاعتقادهم بأن علاقة عائلة بوش بآل سعود الخاصة ستقود ساكن البيت الأبيض الجديد إلى الإصغاء لوجهة النظر السعودية فيما يتعلق بقضايا الشرق الأوسط ومنطقة الخليج وطريقة حل الصراع العربي- الإسرائيلي، وربما أيضا إلى التحلي ببعض الحكمة والتروي التي عُرفت عن ملوك السعودية. كما فرح البعض الآخر لاعتقادهم بأن انتخاب بوش أبعد شبح السيد آل غور مرشح الديمقراطيين ونائبه عن البيت الأبيض، وذلك بعد أن اختار آل غور يهوديا محافظا كنائب وشريك له في قيادة المعركة الانتخابية لمنصب الرئاسة الأمريكية.

لكن الذين فرحوا من العرب لانتخاب أو لاختيار بوش، لم يطلعوا على تاريخه الذي كان يحفل بالمتناقضات والفشل، الفشل في إدارة أعماله وأعمال شركائه في حقول النفط، والتناقضات السلوكية والمواقف الإيمانية التي سلكها وآمن بها في حياته. إذ بينما كان بوش الابن قد تهرب بمساعدة والده الرئيس الأسبق من الخدمة العسكرية، مر خلال فترة دراسته الجامعية وبعدها في مرحلة اتصفت بالإدمان على الكحول والابتعاد عن الدين وعدم المسؤولية. إلا انه عاد بعدها وتاب وأقلع عن تعاطي الكحول وانضم إلى صفوف المسيحيين المتطرفين الذين يطلقون على أنفسهم "المسيحيون المولودون ثانية". وكما تشير العديد من الدراسات النفسية والتجارب العملية، إن من الصعب الاطمئنان إلى اتزان وحسن تصرف كل شخص ينتقل من فكر إلى فكر آخر نقيض.

إن مما شك فيه أن الرئيس بوش لم يأتي إلى الحكم بسبب ثقافته العالية ومعرفته بقضايا العصر والشؤون الدولية، ولا بسبب تجاربه الناجحة في الإدارة السياسية أو الاقتصادية، ولا بسبب ذكائه أو حكمته، ولا بسبب كونه بطلا حارب باسم أمريكا ومن أجلها. لقد جاء بوش إلى الحكم كصدفة تاريخية، وتم انتخابه في عملية مشكوك في سلامتها من الناحيتين الأخلاقية والشرعية، وتحول وجوده على رأس الدولة العظمى الوحيدة في العالم إلى كارثة دولية ذات أبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية وإنسانية. إذ جاءت تصرفاته العدوانية تجاه أفغانستان والعراق، ومواقفه تجاه لبنان وحقوق شعب فلسطين وإيران وقضايا السلام والاستقرار في الشرق الأوسط عامة، ومعارضته للعديد من الاتفاقيات الدولية المتعلقة بالبيئة والقانون الدولي واتفاقية جنيف وغيرها، ومحاباته للأثرياء على حساب الضعفاء في أمريكا لتعكس غباء وتصرفات هوجاء إلى أقصى الحدود.

إن القيادات الصدفة لا تعجز عادة عن القيام بأعمال غير عادية، بل على العكس من ذلك تماما، إذ كثيرا ما تلجأ إلى القيام بأعمال جريئة غير منطقية، وذلك من اجل إثبات أهليتها للحكم، وإعادة تأكيد شرعيتها المشكوك في صحتها. ولنا في عالمنا العربي خير مثال في تصرفات الرئيس السادات الذي كان مجيئه للحكم صدفة تاريخية محزنة دفعته إلى المغامرة بالذهاب إلى القدس، حيث فتحت مغامرته الباب على مصراعيه لبدء مسلسل استسلام الأنظمة العربية الواحد تلو الآخر، وحصول الكيان الصهيوني على صك شرعية الوجود والاحتلال، وترجمة كل أحقاده وعنصريته تاريخا سُطر بدماء أطفال فلسطين ولبنان. وهذا يضع الأوطان التي تقع تحت إدارة قيادات صدفة في موقع حرج، ويعرضها للخطر، ويهدد الأمن الوطني والاستقرار الإقليمي والدولي على السواء، وقد يتسبب في وقوع كوارث يصعب التحكم فيها أو تلافي تبعاتها السلبية. ولما كانت أمريكا هي القوة العظمى الوحيدة في العالم، فإن وجود قائد صدفة على رأسها حولها من قوة بناء تعمل على تحقيق التنمية والعدل والديمقراطية في العالم، إلى قوة هوجاء تشن حروبا غير مبررة تتسبب في سفك دماء

الأبرياء، وتعمل على تغذية الكراهية والحقد، وتقوم بتشجيع قوى الظلم والقهر باستغلال موارد الوطن والفقراء وإضاعة ما لديهم من فرص متاحة.

وكما أن الحكمة هي كالأوبئة تعدي من يقترب منها، كذلك هو الهوج ينقل عدواه لكل من يقترب منه. فعلى سبيل المثال، كانت سنوات الرئيس كلينتون الأخيرة في البيت الأبيض أكثر حكمة من سنوات حكمه الأولى، وذلك بعد تقربه من الزعيم الأفريقي نيلسون مانديلا الذي تسبب على ما يبدو في انتقال جزء مما لديه من حكمة للرئيس كلينتون. ومنذ التوجه نحو غزو العراق وتدمير بنيته التحتية وتفتيت النسيج الاجتماعي والسياسي لمجتمعه، وجد بوش استعدادا من قبل أكثر من سياسي واحد للانضمام إليه والمشاركة في حملته العسكرية المدمرة ضد العراق، وذلك كما حدث بالنسبة لرؤساء وزارة بريطانيا وايطاليا واستراليا وإسبانيا وغيرها من بلاد العالم. ففي ايطاليا، كانت محاولة تقرب رئيس وزراءها السيد بيرلسكوني من سيد البيت الأبيض سببا في تحوليه إلى سياسي أهوج، تسبب في قتل أبرياء ايطاليين في العراق، وفي إثارة الشكوك حول عقلانية السياسة الايطالية. من ناحية أخرى، كان التقارب بين رئيس وزراء بريطانيا السيد توني بلير والرئيس بوش سببا في تحويل بلير، والذي جاء للحكم كرجل عاقل وذكي ومتزن، إلى رجل أهوج صغير تابع لرجل أهوج أكبر وأخطر منه بكثير.

بعد أن أعطى قدوم بلير إلى الحكم في بريطانيا أملا في إمكانية قيام الدولة العجوز باستخدام مكانتها المقربة من أمريكا بدور إيجابي في حل مشاكل الشرق الأوسط، خاصة مشكلة فلسطين، تحول بلير، وبسرعة غير عادية بعد وصول بوش إلى الحكم إلى لاعب احتياط في فريق يقوده رجل متهور يستخدم إستراتيجية هوجاء للسيطرة على العالم. وفي الواقع، كان بلير يصدر تصريحات مشجعة بين الحين والآخر وكلما تدهورت الأمور في العراق وفلسطين، ويسرع بالذهاب إلى واشنطن لإقناع رئيسها بوجوب العودة إلى منطق العقل، إلا أن بلير كان يعود كل مرة خالي الوفاق، وأصغر مما كان عليه قبل رحلة الذهاب وأكثر هوجا. ومع الأيام أصبح بلير صغيرا لدرجة جعلت من الصعب رؤيته بالعين المجردة إلا في نادي القيادات الهوجاء واقفا إلى جانب بوش.

وحين قررت المستشارة الألمانية السيدة ميركل أن تتقرب من بوش وجدت نفسها لا تقوم بدعم سياساته الهوجاء فقط، بل وأيضا بالتعاون مع أهوج لندن في تعطيل تقدم الاتحاد الأوروبي نحو استكمال مقومات دولة عظمى متحضرة، تكون بمثابة ضمير لعالم تسيطر عليه قيادات تتصف بالهوج والحماقة والغباء أو الجهل. وفي إسرائيل، جاءت غيبوبة شارون لتضع الدولة اليهودية تحت إمرة قائد صدفة، اتجه منذ يومه الأول إلى التقرب من بوش والانضمام لنادي القيادات الهوجاء. وكغالبية القيادات الصدفة أصر اولمرت على القيام بخطوات غير عادية تذكرنا بجرائم النازية ضد اليهود، وذلك من خلال ارتكاب جيشه اليهودي لجرائم مماثلة بحق العرب، وإن لم تكن بنفس الحجم. إن من المؤكد أن شارون يؤنب نفسه على السماح لرجل أهوج بوراثته، وأن عبد الناصر يتألم بسبب فتح المجال لصدفة تاريخية كي تغير موازين القوى في منطقة الشرق الأوسط لصالح أعداء العرب، وتقود إلى تتويج حاكم تل أبيب زعيما لها. وهذا تسبب في دخول العالم القرن الحادي والعشرين، قرن المعرفة والتقدم التكنولوجي وحقوق الإنسان والديمقراطية، تحت ألوية قيادات هوجاء ترسم وتطبق سياسات حمقاء.

د. محمد عبد العزيز ربيع
www.yazour.com
مايو 2006